التفاعلية الرمزية و البنيوية

تعريفها

يرجع أصحاب هذه النظرية ، جذور النظرية التفاعلية الرمزية إلى أفكار عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبير الذي أكد على أنا فهم العالم الاجتماعي يكون من خلال فهم اتجاهات الأفراد الذين نتفاعل معهم ، وان فهم الظواهر الاجتماعية يكون من خلال تحليل الفعل الاجتماعي في المجتمع ، ثم تولي تطويرها الكثير من علماء النفس الاجتماعي من أمثال جورج هربت ميد .

ويشير مصطلح الرمز إلى : الشيء الذي يشير إلى شيء أخر ويعبر عنه بالمعنى ،كالعلاقات و الاشارت والقوانين المشتركة، واللغة المكتوبة ،أما التفاعل الرمزي يشير إلى : ذلك التفاعل الذي يأخذ مكانه من الناس من خلال الرموز ، ومعظم هذا التفاعل يحدث على أساس الاتصال القائم وجها لوجه لكنه

يمكن حدوثه بأشكال أخرى كالاتصال الرمزي الذي يحدث بينك وبين المؤلف عندما عندما تقرا جملة له ويحدث أيضا عندما تطيع أو تخالف الإشارة الضوئية وإشارة (1)عدم

التجاوز و التفاعل الرمزي هو الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان ، فالإنسان وحده القادر على التعامل بالرمز ويتفاعل بواسطته ، ومقدرة الإنسان في إنتاج الرمز و استعماله لم تأت بين يوم وليلة ، وإنما جاءت حصيلة تطور مستمر مئات السنين .

رواد النظرية التفاعلية الرمزية

1 - جورج هربرت ميد :

هو من أشهر علماء الاجتماع الأمريكان ومن أشهر الرواد المؤسسين في الاتجاه التفاعلي الرمزي ولد عام 1863 وتوفي في 1931 ولد في (مشاشوستس) ابن رجل بريطاني وتعلم في كليه ابرلن ثم جامعه هارفارد ثم جامعه ليبزج ثم جامعه برلين تأثر بأفكار ديوي وسمل ووليم جيمس وقدم بحوث عن أفكارهم . عمل مع ديوي في جامعه شيكاغو . وقد جمع له تلاميذه كتبا بعد وفاته . يحتوي على معظم أفكار التي كانوا يدونوها في محاضراته تحت عنوان mind self and -society -

*** من أهم أعماله :**

(العقل والذات والمجتمع) (وفلسفه الفعل) . أضافه إلى أبحاثه في علم النفس الاجتماعي والفلسفة . وقد ساهم هربرت في وضع المبادئ والأفكار الأساسية للنظرية التفاعلية الرمزية من خلال دراسته لذات في المجتمع . كما يقيهما الفرد ودراسته للذات كما يقيمها الآخرون . بمعنى أخر أنا كما أقيم ذاتي وأنا كما يقيمني الآخرون .

ويعتقد جورج ميد أن الذات في المجتمع هي حصيلة تفاعل عاملين : العامل النفسي الذي يعبر عن خصوصية الفرد وشخصيته والعامل الاجتماعي الذي يجسد مؤثرات البناء الاجتماعي المحيطة بالفرد . وحلل عمليه الاتصال وقسمه إلى قسمين اتصال رمزي وغير رمزي عن طريق الأفكار والمفاهيم وبذلك تكون اللغة هي وسيله الاتصال بين الإفراد رمزا لأنها تؤثر في الإفراد كما تؤثر في الآخرين .

*** فرضيات جورج هربرت :**

1- اعتبر ميد أن الفرد رشيد وانه نتاج العلاقات الاجتماعية product of social relation ونرى هنا وجه الشبه مع ما ذهب إليه فيبر .

2- اعتبر ميد أن الحقيقة هي كل ما لدى الفرد individual والاجتماعي social مثل هذه الدراسة ذات المستويات المتعددة ذات أهميه كبيره لأنها عكس ما كان قبلها من النظريات التي كانت تتعامل مع الوحدات الكبرى .
3- اعتبر ميد أن المجتمع دينامكي وتطوري مستمر في تقديم أنماط جديدة للافراد
*** ابرز المفاهيم عند جورج هربرت ميد :**
1- العقل
2- الذات (النفس) : وحدة اجتماعية مميزة عن الكائن الفيزيقي، رغم طبعاً، أنه لا يمكن أن تظهر إلا على أساس هذا الكائن . تظهر النفس في سياق خاص للخبرة والتفاعل الاجتماعي، وتظل تتطور في علاقتها بالعملية الاجتماعية والأفراد الموجودين فيها .
3- مكونات النفس : قسمها إلى جزأين :
* الأنا أل (I) : وهو جزء عفوي مندفع .
* الذات الاجتماعية (Me) : وهو جزء اجتماعي ضميري ناشئ عن القيم والمعايير والتوقعات الاجتماعية .
4- الـذات البيولوجيـة : الذات عند ميد هي وحدة بيولوجية وهي الميل المندفع للتصرف أو رد الفعل لمؤثر معين " تحت ظروف عضوية معينة، كالجوع أو الغضب وغيرها من لاندفاعات .
5- المجتمع : مفهوم المجتمع الإنساني عند ميد يصر على تقدم وأولوية الخبرات والسلوك الاجتماعي الآني والموجود .

2- هربرت بلومر H.Blumer (1900-1986) :

أفكاره :
أ - فرضيات التفاعلية الرمزية : طرح هربت بلومر مجموعة من الفرضيات إطارنظري لتحليله التفاعلي الرمزي للظواهر الاجتماعية يمكن صياغتها في النحو التالي :
1- الناس – فرادى وجماعات – مهيئون للتفاعل الاجتماعي على أساس معاني الموضوعات التي يتضمنها عالمهم ، وان السلوك يرتكز على المعاني الاجتماعية المرتبطة بموضوع معين و هذه الموضوعات على ثلاث أنواع {الموضوعات الطبيعية ، الموضوعات الاجتماعية ، الموضوعات المجردة }
2- تمثل الترابطات العلمية التي يشكل فيها الناس الإشارات فيما بينهم ويؤل كل منهم إشارات الآخرين
3- إن الأفعال الاجتماعية تتشكل خلال العملية التي يلاحظ فيها الفاعلون ويؤلوا و يقدروا المواقف التي تواجههم ، وعليه فان الكائن البشري هو ذلك العضو الفاعل بنفسه والذي يشارك في شغل الدور .
4- أن الأفعال المتداخلة و المعقدة الترابط تكون التنظيمات و النظم وتقسيم العمل ، (1)وان شبكة الاعتماد المتبادل دينامية وليست أمورا ثابتة .
ب - منهج البحث :
كما صاغ هربت بلومر أفكاره الاجتماعية في كتابه * منظور و منهج التفاعلية الرمزية * الذي نشر في عام 1969 ، وفي هذا الكتاب انتقد التحليل الاجتماعي القائم على أساس تحليل العلاقة الترابطية بين المتغير المستقل و المتغير التابع ، فهذا التحليل هو خاص

بالعلوم الدقيقة أين يمكن التحكم أكثر في المتغير التابع و المتغير المستقل { كالتحكم في درجة الحرارة و غليان الماء }.

وحدات تحليل التفاعلية الرمزية :

1 ـ التفاعل : وهو سلسة متبادلة ومستمرة من الاتصالات بين فرد وفرد، أو فرد مع جماعة، أو جماعة مع جماعة .

2 ـ المرونة : ويقصد بها استطاعةُ الإنسان أن يتصرفَ في مجموعة ظروف بطريقة واحدة في وقت واحد، وبطريقة مختلفة في وقتٍ آخر وبطريقة متباينة في فرصةٍ ثالثة .

3 ـ الرموز : وهي مجموعةٌ من الإشارات المصطَنعة، يستخدمها الناس فيما بينهم لتسهيل عملية التواصل، وهي سمة خاصة في الإنسان ، وتشمل عند جورج ميد اللغة وعند بلومر المعاني، وعند غوفمان الانطباعات والصور الذهنية .

4 ـ الوعيُ الذاتي : وهو مقدرة الإنسان على تمثّل الدور، فالتوقعات التي تكُون لدى الآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة، هي بمثابة نصوصٍ يجب أن نَعيها حتى نُمثلَها، على حد تعبير غوفمان.

5 ـ الذات : وهو ما يتعلق عادة بتصور الفرد عن نفسه الناتج عن خبراته في التفاعل مع الأفراد الآخرين كما يمكن تعريف مفهوم الذات نفسيا بأنها (تكوين معرفي منظم وموحد ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتعميمات الخاصة بالذات ،يبلوره الفرد ويعتبره تعريفا نفسيا لذاته) .

6 ـ الذات الفاعلة أو الفاعل الاجتماعي : إن مفهوم الذات الفاعلة عند علماء التفاعلية الرمزية اقرب إلى مفهوم النفس البشرية التي هي حصيلة تفاعل عوامل داخلية وراثية وخارجية مجتمعية .

7- التنشئة الاجتماعية : والتي تشير إلى عملية تشكيل نفس الإنسان تشكيلا اجتماعيا بشكل يجعله قادرا على الحياة في مجتمعه ن ويتماثل طبيعيا مع السلوك المقبول اجتماعيا .

8- التحلل الاجتماعي : يعني عدم خضوع الأفراد في تفاعلهم الاجتماعي إلى ضوابط و معايير اجتماعية الخاصة بالمجتمع كالقيم والأعراف .

9- التنظيم الاجتماعي : أي خضوع تفاعلات الأفراد إلى ضوابط و معايير المجتمع الخاصة به كالقيم و العراف و التنشئة الاجتماعية .

نقد التفاعلية الرمزية:

1- أكدت التفاعلية الرمزية على أن المجتمع تفاعل رمزي دون أن تشير إلى أنماط الظروف مهما كان نوع التفاعل الذي يؤدي إلى ظهور وانبثاق أي نمط من أنماط بناء اجتماعي واستمراره وتغييره في سياق أي ظرف من الظروف .

2- الغموض الذي اتسمت به أطروحات التفاعلية الرمزية وكيفية تشكيل التنظيم الاجتماعي وتغييره فهناك غموض بين عملية التفاعل ونتائجها .

3- عدم صياغة براهين وحجج كافية وذلك حول كيف وإلى أين وما عمليات التفاعل التي تعمل على تكوين واستمرار وتغيير أنماط التنظيم الاجتماعي المتنوعة والمتباينة .

4- تقليل التفاعلية الرمزية من شأن الأبنية الاجتماعية بحيث تجعلها موضوعات ناتجة عن اتجاهات الفاعلين أو الأشياء تتشكل كنتيجة للتفاعل .

5- عدم ربط التفاعلية الرمزية بين الأبنية الاجتماعية و العمليات الاجتماعية واقتصارها على تأكيد وجود كل منهما.

6 ـ من الملاحظ أن التفاعلية الرمزية قد جعلت من الشخصية أو الذات محور دراستها ، و جذبت انتباه الباحثين إلى دراسة التفاصيل الصغيرة في الحياة الاجتماعية، و بذلك تكون قد استبعدت النظام الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي من مجال الدراسة و صرف انتباه الباحثين عن دراسة القضايا الأساسية للمجتمع .
7 ـ بالإضافة إلى أن التفاعلية الرمزية قد جعلت التفسير الاجتماعي ينحصر في نطاق التغير النفسي للأفراد ، و ليس التغير في الوحدات أو الأنساق الاجتماعية الكبرى .
8- كما أن التفاعليةَ الرمزية أغفلت الجوانبَ الواسعةِ للبنية الاجتماعية؛ لذلك نجدها لا تستطيع قول أي شيء عن ظواهرَ اجتماعية كالقوة والصراع و التغير، وأن صياغتَها النظرية مغرقة في الغموض، وأنها تقدم صورة ناقصة عن الفرد .

النموذج المسرحي (البراديغم المسرحي) لإيرفينج جوفمان

ايرفينغ غوفمان واحد من أهم علماء الاجتماع في القرن العشرين وأشدّهم نفوذا،جاءت أربعة من مؤلفاته ضمن قائمة أفضل مئة كتاب في علم الاجتماع بحسب تقويم الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع في عام 2016، وهي هذا الكتاب، "تقديم الذات في الحياة اليومية"، وكتبه "المصحّات" و"الوصمة" و"تحليل الإطار"، ولم يسبق أن تُرجِم إلى العربية أيّ منها. تقديم الذات في الحياة اليومية"، الصادر في 1956 ثم في 1959، هو أوّل كتب عالم " الاجتماع الأميركي إرفنغ غوفمان وأشهرها، وصُنِّف بين كتب علم الاجتماع العشرة الأهمّ في القرن العشرين. وهو أوّل وصف للطرائق التي يدير بها البشر صورهم والانطباع العام عنهم. ومن هنا استخدام غوفمان مجاز المسرح واعتباره العالم مسرحاً كي يصوّر أهمية التفاعل الاجتماعي بين البشر، وهذه المقاربة هي ما سيُعرف بالتحليل الدراماتورجي، أو النموذج المسرحي
غوفمان هو كبير محللي الأدوار المعاصرة في "العالم المسرح" المعاصر، وكبير مكتشفي اختلال التوازن وتباعد الشقّة بين الحياة الخاصة الشخصية الخفيّة والحياة العامة الجماعية العلنية. مراقبٌ بالغ الحساسية وثاقب النظر في تسجيله تلك التفاصيل وضروب التبادل والتفاعل التي تساهم في صوغ واقع العلاقات البشرية. وتحليله سلوك البشر الظاهر أينما وُجدوا لا يفتأ يزداد أهمية في عصر وسائل التواصل الاجتماعي والثورات المعلوماتية والأوبئة العالمية.

إيرفينج جوفمان (1922- 1982)
عالم الاجتماع الكندي الأصل ايرفينج جوفمان من أكثر علماء الاجتماع تأثيراً في دراسات سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة على الأقل في الفترة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فقد انبنت شهرته الواسعة بسبب تحليله للقواعد الاجتماعية التي لا تتصف بصفة المباشرة ولكنها كامنة وتتحكم مع ذلك في مختلف صور التفاعل الاجتماعي غير اللفظي، ولذا فهو يعتبر من أكبر المشايعين لنظرية التفاعل الرمزي وواحداً من أكبر أتباع مدرسة شيكاغو في التفاعلية الرمزية، إذ تتلمذ على أيدي هربرت بلومر الذي كان يعتبر من أقطابها المرموقين .

ولد ايرفنج جوفمان في مانفيل بكندا في 11 يونيو عام Alberta في البيرتا Mannville 1922 وتعلم في جامعة تورنتو حيث تخصص في العلم الاجتماعي وحصل على درجة الماجستير (1949) ثم الدكتوراه في علم الاجتماع (1952) من جامعة شيكاغو وقام بتدريس علم الاجتماع والأنثربولوجيا من عام 1968 إلى عام 1982 (عام وفاته) في جامعة أدنبرة التي انتقل منها إلى جامعة كلى ثم جامعة بنسلفانيا .

ومنذ البداية اتسم تفكير جوفمان بالأصالة والعمق فقد قرأ لدوركايم وجورج زيمل واهتم اهتماماً كبيراً بكتابات مختلف الاتجاهات الصورية على وجه الخصوص وبخاصة في نزعتها إلى التعميمات لدرجة أنه كان يسقط من حسابه كثيراً من التفاصيل التي قد يضيع في ثناياها جوهر ما يهدف إليه ويريد أن يقوله، خاصة وأن كل كتاباته كانت تدور حول العلاقات الاجتماعية ومظاهر السلوك البشري بجوانبها الظاهرة والمضمرة ولكنها بالذات ما اعتبره تركيباً صادقاً للواقع الاجتماعي.

ولقد سعى جوفمان إلى بلورة نظريته الخاصة في مظاهر السلوك البشري في عدد من مؤلفاته لعل أهمها كتابه "تقديم الذات في الحياة اليومية" الذي صدر في (1965)، ففي هذا الكتاب الذي يعتبر أشهر كتبه عرض نظريته في التفاعل الاجتماعي والفكرة المحورية عنده أننا نقدم أنفسنا إلى الآخرين في صورة مختلفة ومن خلال أقنعة تختلف باختلاف المواقف التي نجد أنفسنا طرفاً أو منخرطين فيها، (محمد أبو زيد،2007، ص31) كاشفا بذلك عن كل ما يصدر عن الإنسان من إيماءات وإشارات تلقائية وغير مقصودة ومن بينها حتى حركة العينين أو وضع الجسم وحركاته وما إلى ذلك من مظاهر السلوك. إنما لها وضعية ذات معنى وتأثير ايجابي في العملية الاتصالية إذ تتحدد في ضوئها الكثير من ردود الأفعال من قبل الآخرين، وهي ما يتفق مع نظرته إلى الحياة ذاتها التي نظر إليها على أنها مسرح كبير مليئ بالمواقف التي يقوم فيها الأشخاص بدور الممثلين الذين يسعون إلى التأثير أو على الأقل ترك انطباعات معينة في المشاهدين، وكذلك الحال بالنسبة إلى كل منا في سعينا المتواصل إلى أن تؤثر صورتنا عن ذواتنا في الآخرين أطراف التفاعل والمشاركين في المواقف على نحو أو آخر.

والكتاب الهام الثاني أصدره جوفمان في 1969 تحت " where the action is" واهتم فيه اهتماماً خاصاً ببناء المواقف الاجتماعية والقواعد التي تحكم هذه البناءات عنوان أكثر من اهتمامه بالمحتوى الذي اعتقد أنه كثيراً ما يتغير ويتلون بتغير القواعد ذاتها، وبالتالي تأثيرها في بناء المواقف الاجتماعية ومضامينها، كما صدر له كتابان آخران على غاية من الأهمية أحدهما ظهر في أواخر حياته (1974) بعنوان "التحليل الإطاري: مقال في تنظيم الخبرة" واهتم فيه بدراسة عمليات الاتصال غير اللفظي. على:

حين يعتبر الكتاب الهام الثاني آخر كتبه إذ صدر قبل وفاته بثلاثة أعوام Advertisment ويدور حول دراسة متعمقة لخصائص بعض الصور واللوحات والبورتريهات التي بعنوان تنطوي صراحة وضمناً على أهداف دعائية وإعلامية ترتكز على ما تكرره دائماً وتروج له من قيم تستهدف التأثير في مشاعر المستهليكين وبالكاد في الطبقة السطحية الرقيقة من وعيهم.

(محمد أبو زيد: أعلام الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي الغربي المعاصر، ج2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ، القاهرة،2007،ص32).

تعد نظرية التمثيل المسرحي من النظريات الحديثة في علم الاجتماع إذ أنها تأسست في منتصف القرن العشرين, وقبل تأسيسها كانت جزءا أو فرعا من النظرية التفاعلية الرمزية التي انشقت من نظرية الدور في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.
إن هذه النظرية تعتقد بأننا ممثلون ولكوننا ممثلين ندخل إلى الحياة التي هي مسرح كبير من باب ونخرج من المسرح من الباب الآخر. وعندما نمثل على خشبة المسرح نقيم الآخرون والآخرون يقيموننا .
علما بأن التقييم سواء كان ايجابيا أو سلبيا أنما يعتمد على طبيعة التمثيل الذي نمثله على خشبة المسرح.
وسنتناول في هذا البحث بالدراسة والتحليل نظرية التمثيل المسرحي من جوانب رئيسية :
تأسيس نظرية التمثيل المسرحي.
المبادئ التي ترتكز عليها نظرية التمثيل المسرحي .
التطبيقات العملية والبحثية لنظرية التمثيل المسرحي .

1- تأسيس نظرية التمثيل المسرحي

ظهرت هذه النظرية عام 1959 م عندما نشر مؤسس النظرية أو المدرسة البروفسور ارفينغ غوفمان
(Erving Coman)) مؤلفه الموسوم "عرض الذات في الحياة اليومية" والكتاب يحتوي على ما يتعلق بنظرية التمثيل المسرحي.
علما بأن غوفمان هو كندي الجنسية وسبق أن تلقى دراساته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية إذا حصل على الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1950م من جامعة شيكاغو الأمريكية ويعد بالأساس من أنصار التفاعلية الرمزية والتي تعد جزأ من نظرية الدور .
غير أن غوفمان قد عارض التفاعلية الرمزية وانتقدها في دراسات منشورة وانشق عن مؤسسيها أمثال البروفسور جورج هريربرت ميد و أي دبليو توماس . وبعد انشقاقه وانتقاده وخروجه من التفاعلية الرمزية أسس مدرسة جديدة وهي مدرسة التمثيل المسرحي التي تعد من المدارس الاجتماعية الحديثة في علم الاجتماع.
وعلى الرغم من اعتراضه على التفاعلية الرمزية وخروجه منها إلا انه استمر بالاعتقاد ببعض المبادئ والأطروحات التي تؤمن بها التفاعلية الرمزية وبخاصة ماجا به جارلس كولي زعيم المدرسة التفاعلية .
ذلك أن غوفمان قبل تأثره بالنظرية التفاعلية سبق أن تأثر بطروحات ومبادئ وأسس النظرية التفاعلية .
ومن هذا فإن المدرسة التي أسسها غوفمان تختلف كثيرا بأفكارها وأطروحاتها عن ماجاءت به المدرستان التفاعلية والتفاعلية الرمزية من أراء وأفكار ومبادئ .
أن الاختلافات الشاخصة بين نظرية التمثيل المسرحي والنظرية التفاعلية والنظرية التفاعلية الرمزية هي أن نظرية التمثيل المسرحي تعتقد بأن تمثيل الإنسان لدوره على المسرح وخشبة المسرح هي أن الحياة الاجتماعية اليومية التي نعيشها يكون بطريقة انه أي تمثيل يظهر الجوانب الايجابية للدور الذي يمثله الفرد أمام مسئوله الكبير كالأب أو المعلم أو رب العمل أو رئيس الدائرة ويخفي الجوانب السلبية وغير المرغوبة عن المسئول .

ومثل هذا النوع من التمثيل يجعل المسئول راضيا ومقتنعا بشخصية الممثل أو الذي يعمل تحت إمرته وهنا يكون الأخير ناجحا في حياته ومقيما من المسئول يحمل عن التابع فانه يقيم نفسه عاليا , أي ينظر إلى نفسه في المرأة نظرة مليئة بالرضا والقناعة والفخر .
أما التفاعلية فتختلف بأفكارها عن التمثيل المسرحي والاختلاف هنا هو أن التفاعلية لا تنظر إلى الدور الذي يمثله الفرد في الحياة اليومية أمام الآخرين , بل تنظر إلى عملية التفاعل بين الفرد والآخرين . فهذا التفاعل ينتهي بتقييم الفرد من قبل الأفراد الذين تفاعلوا معه عبر فترة من الزمن , والتقييم قد يكون ايجابيا أو سلبياً .
فإذا كان ايجابيا فان الفرد يقيم نفسه بصورة ايجابية , أي ينظر إلى ذاته في المرآة واعكس هو الصحيح إذا كان تقييم المجتمع له سلبياً.
والتفاعلية الرمزية تختلف عن التمثيل المسرحي بجوانب كثيرة منها أنها لا تنظر إلى الدور الذي يمثله الفرد على خشبة المسرح أو المجتمع بل تنظر إلى التفاعل الذي يحدث بين الأفراد لفترة من الزمن , وبعد التفاعل تبدأ الجماعة المتفاعلة بتقييم كل فرد فيها على أنه رمز , وهذا الرمز قد يكون محببا ومستهجنا بناء على الصورة الذهنية التي كونها كل شخص في الجماعة نحو الشخص الآخر .
وعندما يصل التقييم الرمزي الى الشخص المعني فانه يقيم نفسه بموجب التقييم الذي حصل عليه من أعضاء الجماعة الين تفاعل معهم .
وهكذا يمكن تحديد أوجه الشبه والاختلاف بين نظرية التمثيل المسرحي والنظرية التفاعلية والتفاعلية الرمزية.

2- المبادئ التي تعتقد بها نظرية التمثيل المسرحي

تعد نظرية التمثيل المسرحي من النظريات المهمة التي تضيف إلى ميدان الميكروسسيولوجي لأنها تهتم بدراسة العلاقة بين شخصين أحدهما يختل مكانه رفيعة والآخر يحتل مكانه أدنى .
والنظرية تضيف إلى ميدان علم النفس الاجتماعي لأنها تتطرق إلى دراسة المواقف داخل الجماعات الصغيرة , وأنها تحلل الحياة الاجتماعية وفقا للأدوار التي يمثلها الفرد في الحياة الاجتماعية اليومية , أي يمثل أدواره في المسرح , أي الحياة الاجتماعية التي نعيشها .
علما بأن هذه الحياة تشهد نوعين من الأفراد:
النوع الأول يتكون من أفراد ناجحين , والنوع الثاني يتكون من أفراد فاشلين لا يعرفون كيفية تمثيل أدوارهم مع الكبار والمسئولين والمدراء.
فالفرد الناجح في الحياة هو الذي يجيد تمثيله لدوره أمام الكبار إذ يحصل على رضاهم واستحسانهم , بينما الفرد الفاشل في الحياة هو الذي لا يعرف كيفية تمثيل دوره أمام مسئوليه.
فتمثيله الفاشل يثير خط واستهجان مسئولية له , وبالتاي إخفاقه في الحياة وعدم تقدمه في مجالاتها
أما المبادئ الأساسية التي ترتكز عليها نظرية التمثيل المسرحي فيمكن إجمالها بعشر نقاط أساسية هي كما يلي :
1-إن الحياة الاجتماعية التي نعيش فيها ما هي إلا مسرح كبير له باب يدخل من خلالها الممثلون وباب آخر يخرج منه الممثلون بعد الانتهاء من فصول أو مشاهد تمثيلهم .

والممثلون هنا هم الأفراد الذين يعيشون في المجتمع ويمثلون أدوارهم أمام آخرين سواء كانوا أعلى أو أوطأ منهم .
2- أن الأفراد الذين يعيشون في المجتمع أو الحياة الاجتماعية هم عبارة عن ممثلين في هذا المسرح الكبير , إذا أن كل فرد هو ممثل أمام الآخرين .
ولما كان ممثلا فأنه يدخل من باب ويخرج من الباب الآخر للمسرح الذي يمثل فيه.
3- إن الممثلين الذين هم أبناء المجتمع يمثلون أدوارا اجتماعية مختلفة منها ادوار رئاسية وادوار مرؤوسيه وادوار وسطية , ذلك أن الممثل إما يكون رئيسا أو مرؤوسا وان دوره هو الذي يحدد مركزه التمثيلي .
4- يدخل الفرد إلى المسرح للتمثيل في بدء حياته التمثيلية, أي بدء حياته الاجتماعية ويخرج الفرد من المسرح في نهاية حياته التمثيلية, أي في نهاية حياته الاجتماعية التي يعيشها.
5- يلعب الفرد أدواره في حياته اليومية كممثل فإذا أجادا لعب الأدوار فانه يلقي الاحترام والتقدير من الآخرين وبخاصة الأعلى منه .وإجادة لعب الأدوار تعني إظهار الجانب الجيد من سلوكه وشخصيته وعلاقاته وإخفاء الجانب السيء .
إما أخفاق الفرد في لعب الأدوار التي يقوم بتمثيلها في المجتمع فانه يلقي الرفض والاستهجان والتأنيب والمقاطعة من قبل أبناء المجتمع لأنه اظهر لهم الجانب السلبي من شخصيته وأخفى عنهم الجانب الايجابي .
6- يحاول الفرد عند تفاعله مع الآخرين لا سيما الأفراد الأعلى منه درجة أن يظهر أمامهم الوجه الجيد من شخصيته وإخفاء الوجه السلبي والقبيح , لان إظهار الوجه القبيح إمامهم سيدفعهم إلى استهجانه ومقاطعته والوقوف ضده .
وهذا ما يسبب فشل الفرد في مهامه وأعماله. لذا فالفرد كلاعب أو ممثل للأدوار غالبا ما يظهر الوجه الجيد والايجابي لشخصيته ويخفي الوجه القبيح والمرفوض املآ في قبوله من لدن المجتمع مع تقييم سلوكه اليومي والتفصيلي .
7- في بعض الحالات يلعب الفرد دوره أو يمثل دوره بطريقة تظهر أمام المسئولين الجوانب السلبية لذاته , ويخفي وراء المسرح الجوانب الايجابية , أن هذا الشخص لا ينجح في حياته العامة والخاصة لأنه لا يعرف كيف يمثل أدواره أمام الآخرين , أي لا يعرف كيفية تقمصه للشخصية المحببة والمفضلة من المجتمع ولا ينال رضاه وقبوله لأنه لا يعرف كيفية التمثيل أمامهم الآخرين , بل على العكس يجيد عرض ذاته بجوانبها السلبية والمستهجنة والمرفوضة .
8- عندما يعرض الفرد خلال فترة التمثيل الجوانب الايجابية عن شخصيته ويخفي الجوانب السلبية فان الآخرين يكونون صورة ذهنية نحو إزاءه , وهو نفسه يكون صورة ذهنية نحو ا لآخرين, وهذه الصورة هي التي تحدد تقيمه للآخرين وتقييم الآخرين له.
وهذه الحقيقة إنما تتناغم مع ما جاء به جارس كوولي في كتابه الموسوم " الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي " .
9 – أن الصورة التي يحملها الآخرون عن الفرد بعد قيامه بتمثيل الأدوار التي يؤديها هي التي تدفعه إلى تقييم ذاته وبالتالي تقييم الآخرين . ذلك أن تقييم الفرد من قبل الآخرين هو الذي يدفعه إلى تقييم ذاته , لأن تقييم الذات يعتمد على تقييم الآخرين للفرد .

10- الحياة الاجتماعية التي نعيشها إذن هي رحلة يدخل فيها الإنسان من باب ويخرج من الباب الآخر , وفي هذه المرحلة يمثل الفرد أدواره أمام الآخرين والآخرون يمثلون أدوارهم أمام الفرد .وهذا التمثيل الذي يقوم به طرف أمام الطرف الآخر هو الذي يكون الصورة النمطية التي يحملها كل طرف نحو الطرف الآخر .
وهذه الصورة النمطية عندما تصل إلى الفرد فانه يقيم نفسه بموجب طبيعتها وشكلها.
ويمكن تطبيق نظرية التمثيل المسرحي على عدد من الأبحاث الاجتماعية التي تدور حول العلاقة الإنسانية بين الأفراد والجماعات .
أن هذه النظرية تعد جزءا من النظرية التفاعلية , والتفاعلية الرمزية ولكنها تبحث الموضوع بطريقة ابعد وأعمق مما تبحثه التفاعلية الرمزية , أنها تبحثه من حيث تفسير النجاح أو الفشل وفقا لجودة الفرد في تمثيله الأدوار المناطة به .
يوضح لنا عالم غوفمان أمر معين وهو الدور الاجتماعي لعل هذه اللفظة مأخوذة من عالم المسرح التمثيلي والأداء فيه، فنحن في حياتنا اليومية نمثل على بعضنا البعض في مسرح الحياة وفق الشخصيات التي نقابلها أو نجتمع معها ، فالمدرس ربما له نشاطات وأساليب إتجاه الطلاب، فأنت حينما تقابل شخصيات تعتبرها مهمة فسوف ترتدي زي رسمي وسوف تحرص على معايير الانضباط والتهذب، غير أنك لو خرجت مع صديق أو فرد من العائلة فسوف ترتدي زي رياضي وتتغير أنماط سلوكك وفي كلا الحالتين بسبب الوضع الذي يفرض عليك من الذين يحيطون بك، وهذا حسب مكانتك الإجتماعية، فهناك مكانة موروثة (العرق، الجنس، العمر ،لون البشرة أبيض أسمر، مراهق، أنثى،ذكر...) وهناك مكانة مكتسبة فقد تكون بطال أو طالب أو رياضي أو عامل.....

تطبيق نظرية التمثيل المسرحي على بعض الأبحاث الاجتماعية

يمكن تطبيق نظرية التمثيل المسرحي على العديد من الأبحاث التي تتعلق بالصلة التي تربط العلاقة الإنسانية , طرف يحتل مكانه عالية وطرف آخر يحتل مكانه متدنية أو واطئة كدراسة العلاقة بين الأب والابن والعلاقة بين المعلم والطالب والعلاقة بين الضابط والجندي .
وسنطبق النظرية على العلاقة بين الأب والابن كما يلي: * تطبيق نظرية التمثيل المسرحي على العلاقة بين الأب والابن :
الابن يمكن أن يكون محبوبا من قبل أبيه أذا مثل دوره بطريقة يريدها ويرتضيها الأب , وهذا يكون عن طريق التقيد بالسلوك والممارسات التي يفضلها الأب ويرغب بها , وهنا يتطلب من الابن التعرف على ما يريده الأب ويرتضيه من ممارسات وعلاقات لكي يأخذ بها الابن , وإذا ما أخذ بها فإنه لا يكون مقربا للأب ومحبوبا من قبله.
وعندما يكون الابن مرغوبا من قبل أبيه ومقيما من قبله فان هذا التقييم سرعان ما يصل إلى الابن فيقيم الابن ذاته تقيما عاليا لأن تقييم الذات يعتمد على تقييم الآخرين لها , وعندما يقيم الابن نفسه تقيما ايجابيا عاليا فانه يكون ناجحا في حياته وبالتالي يكون في موقع يستطيع من خلاله التكيف للمجتمع الذي يعيش فيه أو العمل الذي يمارسه .
علما بأن السلوك الذي يمكن أن يلتزم به الابن والذي يرضي أبيه يتكون من المفردات الآتية :
1- إطاعة الأب طاعة كلية والالتزام والتقيد بجميع أوامره ونواهيه بدون كلل أو ملل .

2- احترام الأب وتقديره واعتباره مثلا أعلى للسلوك والأخلاق والقيم والمبادئ .
3- تقمص شخصية الأب وتقليده في الصغيرة والكبيرة إلى درجة أن الابن يكون صورة مجسدة ومعبرة عن شخصية أبيه.
4- توجه الابن لبناء شخصيته ومستقبله وفقا لما يريده الأب ويطلبه.
5- ملازمة الابن لأبيه في جميع الأحوال والظروف وعدم الابتعاد عنه أو تركه مع استعداد الابن العالي على التضحية ونكران الذات في سبيل إسعاد أبيه وتحقيق طموحاته القريبة والبعيدة .

إذا تقيد الابن بمفردات المبادئ والممارسات التي يريدها الأب فان الأخير يحمل الانطباع العالي نحو الابن إلى درجة أن الأخير يكون ناجحا وموفقا في حياته.
أما أذا لم يمثل الابن دوره كما يريد منه أبيه وأظهر الابن الجوانب السلبية من شخصيته وسلوكه لأبيه فأن الأب سيرفض الابن ولا يحترمه وبالتالي لا يكون الابن ناجحا في حياته لأنه لا يحظى بتقدير وتقييم الأب له .
وعند رفض الأب للابن وعدم تقييمه فإن هذا الرفض سرعان ما يصل للابن فلا يقيم الابن ذاته تقييما ايجابيا , أي ينظر نظرة دونية لذاته وبالتالي لا يستطيع التكيف لمحيطه ولا يكون محترما من قبل الآخرين .
لذا فاحترام الابن من قبل الأب إنما يعتمد على تمثيل دوره أمام أبيه, فإذا كان التمثيل بطريقة ترضي الأب وتقنعه فأن الابن يكون مقبولا ومقربا من أبيه, وبالتالي يكون ناجحا في علاقته مع الأب.
أما أذا لا يعرف الابن تمثيل دوره بالطريقة التي يريدها الأب ويرتضيها فإن الابن لا يكون مقبولا أو مقربا من أبيه, أي يكون فاشلا في علاقته مع الأب وربما مع الآخرين.
ومثل هذا الفشل لا يمكنه من إجراء التكيف الصحيح للوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه. (إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة "دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة " ، دار وائل للنشر والتوزيع،عمان،ط3، 2015،بتصرف كبير).

الأثنوميثودولوجيا هارولد غارفنكال

الجذور الفكرية للمنظور الاثنوميثودولوجي و العوامل الممهدة لظهوره :
الأثنوميثودولوجيا هي تيار سوسيولوجي تطور خلال سنوات الستينيات (1960) في جامعة كاليفورنيا عن طريق أثنين من رواده، وهما هارولد غرفنكل(H,Garfinkel) و أرون سيكورين A.cicourel)) هذا المصطلح استعمل لأول مرة مرجعيا مع الإثنوعلوم (l'ethnoscience) الذي يحدد المناهج و المعارف العميقة المستعملة من طرف أناس لعقلنة ممارساتهم الاجتماعية، وكمثال على ذلك الاثنونباتية والتي تعرف مناهج تصنيف النبات في مختلف المجتمعات البدائية.فالإثنوميتودولوجيا هي مدرسة السوسيولوجا الأمريكية و التي تدين بالكثير لمؤسسها غارفنكل. و هو تلميذ بارسون(T-parson) بالأساس. و كتاب آخرين بدرجة أقل كسيكوريل و صاكص(1) .
يرى عدد من المحللين لتطور النظرية السوسيولوجية من أمثال "والتر ولاس" بأن الاتجاه

الاثنوميثودولوجي ترتبط نشأته أو جذوره الفكرية بتحليلات كل من التفاعلية الرمزية والفينومينولوجية ولاسيما أن هذين المنظورين قد احدثا تطور كبير في النظرية السوسيولوجية ،وتأثر أيضا بالتقليد البراغماتي، و بالفلسفة التحليلية. واذا كانت الاثنوميودلوجية قد ارطبت جذورها بهذه الاتجاهات إلا أنها كما يرى الفن جولدنز أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالاتجاهات النقدية التي شهدها علم الاجتماع في الستينات من القرن العشرين وقد ظهر هذا المنظور كأحد البدائل النظرية التي تتخذ موقفا نقديا من النظريات السوسيولوجية التقليدية وخاصة من الاتجاه الوضعي(2) .

العوامل التي ساعدت على الظهور الاثنوميثودولوجيا :

1- فقدان الثقة بالنظريات السوسيولوجية الكبرى وخاصة البنائية الوظيفة التي لم تعد ذلك الإطار المرجعي للتفسيرات السوسيولوجية

2- التناقض الفكري الواضح للوظيفية وطبيعتها المرجعية في تفسير الواقع (التناقض بين الرؤية النظرية والواقع الذي تقوم بتفسيره)

مثلا : مشكلة التفرقة العنصرية وهيمنة السلطة السياسية وانتشار الأمراض والآفات الاجتماعية مثل البطالة، و الجريمة وغيرها من المشاكل والتي لم تعطي لها الوظيفة اهتماما ملحوظا.

3- الأزمات السياسية التي تعرضت لها المجتمعات الإنسانية نتيجة لانتشار الحروب العسكرية وظهور المشكلات السياسية والأخلاقية و الدينية وعجز العلوم الاجتماعية عن دراسة المشكلات الاجتماعية .

4- إخفاق النظريات السوسيولوجية التي تقوم على الفلسفات المتجددة مثل الفينومينولوجيا والوجودية وغيرها من النزاعات التي اتسمت بالطابع المثالي في بعض الأحيان ، في تفسير الواقع لاجتماعي ونظمه ومؤسساته

5- ضرورة تقييم وإعادة النظر في تلك النزعات والنظريات التي ابتعدت في دراستها عن الواقع الاجتماعي

6- رفض المسلمات التي تقوم عليها النظريات الوضعية بأشكلها و التي تدور حول علاقة الإنسان والمجتمع في ضوء تدعي لنفسها من خلال أطرها وتصوراتها المنهجية الصفة والطابع العلمي والوحيد في دراسة الظواهر الاجتماعية، دون الاهتمام بخصوصية الظواهر الاجتماعية المتباينة شكلا ومضمونا عن الظاهرة الطبيعية (3).

مفهوم الاثنوميثودولوجيا :

يرى بعض المنظرين من أمثال رويترنر أن البدايات الأولى لاستخدام مفهوم الاثنوميثودولوجيا يرجع إلى الكتابات المبكرة التي قام بها هارلود جارفنكل في عام 1945م وذلك أثناء دراسته و تحليليه لشرائط المداولات لهيئة المحلفين حين طرحت أمامه لأول مرة فكرة ومفهوم الاثنوميثودولوجيا حين كان مهتما بتحليل مادة المداولات وبكيفية معرفة هيئة المحلفين ماذا يفعلونه خلال عملهم في هذه الهيئة، وبكلمات أخرى لقد اهتم جار فنكل بمجموعة الافعال التي تقوم بها هيئة المحلفين وتستخدمها كنوع من المعرفة و الوسيلة التي تستطيع عن طريقها فهم كيفية تنظيم شؤون المجتمع الذي توجد وتعمل فيه. حيث ركز في دراساته على الهيئة على نوعية المعرفة و أساليب معرفة المداولات، وقد انتشر استخدام

هذا المفهوم بصورة كبيرة مع تعدد دراسات جارفنكل
وهذا المصطلح استعمل لأول مرة مرجعيا مع الإثنوعلوم(l'ethnoscience) الذي يحدد المناهج و المعارف العميقة المستعملة من طرف أناس لعقلنة ممارساتهم الاجتماعية، وكمثال على ذلك الاثنونباتية والتي تعرف مناهج تصنيف النبات في مختلف المجتمعات البدائية
فكلمة أو مفهوم إثنو- Ethno تعني إمكانية تكوين الذوق والحس أو الذوق العام للعضو وعن إدراكه للمعرفة في مجتمعه ، وهذا ما حاول جار فنكل دراسته ، الحس أو الذوق العام لهيئة المحلفين ونوعية المعرفة لأعضائها الذي يتكون حسب طبيعة ونمط الواحد أو الحس والذوق العام للمعرفة التي توجد في المجتمع ككل(4)
أما اذا تم ترجمة أو تحليل مفهوم إثنو- Ethno: فتعني 'الأعضاء' الجماعة (شعبية او قومية) أو سلالة
أما ميثودولوجي Methodology -: تعني منهج أو طريقة
وقد قام جار فنكل بتعريف الاثنوميثودولوجيا- Ethnomethodology : على انها إستقصاء الخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العلمية التي تتم أثناء الحياة اليومية وبتعبير أخر يشير هذا المصطلح إلى دراسة المعاني التي يعطيها الناس لتصرفاتهم وأنماط سلوكهم في عالمهم الاجتماعي .
وبتعريف وجيز هي دراسة مناهج الناس ومعالجة الطرق التي يفهمونا بها عالمهم (5).

موضوعات الاثنوميثودلوجيا وقضاياها الأساسية :

¨ دراسة الواقع الروتيني اليومي، يذكر فليمر- Filmer ان الاتجاه الاثنوميثودولوجي يسعى الى دراسة النشاطات المألوفة تلك التي يقوم بها الأفراد في حياتهم اليومية، وكذرك التعرف على ما يتعرضون له من مواقف في حياتهم اليومية و التي تكون لها دلالتها السوسيولوجية، وذلك بهدف الكشف عن تلك الطرائق التي يسلك بها الأعضاء في هذه الأنشطة المألوفة و المتكررة وغير المألوفة، حيث يستخدم هنا جار فنكل هنا مفهوم ًالدلائل ً "indexicality" وذلك لتوضيح أن أفعال الأفراد وتصرفاتهم هي نتاج للمواقف الاجتماعية التي يصنعونها، أو هي بمثابة مؤشرات على تلك الظروف التي تنشأ فيها أحداث الحياة اليومية . حيث انه في مناقشته لذلك المفهوم قد اهتم بالطبيعة النوعية لمثل هذه الأحداث والظروف التي تحدث فيها .
فإن الأشخاص يقومون بمزاولة نشاطاتهم العادية ويؤدنها بطريقة مألوفة التكرار، وذلك كما أو كان يحكمها قانون ضمني غير مكتوب، ذلك القانون الذي يمثل في تلك الأوصاف التي ينقلها الناس إلى بعضهم البعض في إطار حديثهم عن بعض هذه الأنشطة، وذلك لان تكرار نشاطاتهم المألوفة هذه إنما يستند أيضا إلى الفهم الشائع والمشترك فيما بينهم و أن أي محاولة لدراسة تلك الأنشطة غير العادية أو غي المألوفة و التي تنجم أساسا عن الخروج على ما هو مألوف إنما يساعد على اكتشاف تلك القواعد التي تحكم التفاعل الاجتماعي بين الناس في حياتهم اليومية و يتضح الفهم المشترك أو الشائع بين الأفراد وذلك فيما أشار إليه جار فنكل عند استخدامه لمفهوم العضوية " Membership " بدلا من الفاعلين و الذي تنبع فكرته أساسا من القضية الاثنوميثودولوجية حول السلوك الاجتماعي وذلك حيث

يفترض الأعضاء جميعا أن عالمهم الاجتماعي إنما يكون ذا حقيقة واقعية وأنهم جميعا لديهم خبرة وفهم مشترك بالمجتمع الذي يعيشون فيه(6) .
¨ يعتقد رواد هذا الاتجاه ان فهم هذه الحياة اليومية سيوضح لنا مدى سطحية دراسة التنظيمات و المؤسسات الرسمية بالمجتمع حيث أنها تعتمد أساسا على احصائات و بيانات و سجلات يعتقد علماء الاجتماع التقليديون إنها ممثلة للمواقع وهي في حقيقة الأمر غير ذلك لأنها اعتمد وركزت في تحليلها على أسس ذاتية (الجانب الكمي) لذلك اعتمد الاثنوميثودولوجيا على (الجانب الكيفي) حيث يفهم الفرد أحاث مختلفة في مجتمعه من خلال فهمه للأنشطة الواقعية اليومية(7).
تفسير الاثنوميثودولوجيا لمشكلة النظام الاجتماعي أما عن الاهتمام بتفسير مشكلة النظام الاجتماعي فنجد أن الاتجاه الاثنوميثودولوجي يعالج على نحو مغاير تماما لكل من وجهتي نظر الوظيفية و الماركسية الكلاسيكية ، فالاثنوميثودولوجيا عبرت عن وجهة نظرها من الانظام الاجتماعي على انه ليس ذات وجود فعلي حيث أنه يكون محكوم لطبيعة القواعد المعيارية و التي ترتبط بالمواقف التي تظهر فيها و تتغير أيضا طبقا لتغيرها
إن علماء الاثنوميثودولوجيا يتخلون عن الاعتقاد في وجود نظام موضوعي أو فعلي وينطلقون بدلا من ذلك من مسلمة التي مؤدها أن (الحياة الاجتماعية تبدو على نحو منظم لأعضاء المجتمع) وهكذا تبدو أوجه نشاط الحياة اليومية في نظر الأعضاء منسقة ومنظمة.
ولا يعزى النظام فيها بضرورة إلى الطبيعة الأساسية أو الخواص الأصلية للعالم ج، وبعبارة أخرى قد لا يوجد بالفعل تظاهر ج ، وإنما قد يظهر ببساطة على أنه موجود بفعل الطريقة التي يدرك لها أعضاء يفسرون الواقع ج، ولذلك يصبح النظام اجتماعي خيال ملائم ويتصور أعضاء المجتمع ظهور النظام ، وهذا الظهور يسمح بوصف العالم الاجتماعي و يفسره (8)

المناهج المستخدمة في الدراسة الاثنوميتودولوجية:
لتوضيح المناهج المستخدمة في الدراسات الاثنوميثودولوجيا نجد أن رائدي هذا الاتجاه قد قاموا بإجراء عدة دراسات امبريقية للكشف عن مناهج مختلفة و التي يمكن أن يستعين بها الباحث الاثنوميثودولوجي لكي ينفذ إلى مواقف الحياة اليومية و يتعرف على أفكار و قواعد السلوك المبحوث وعلى الرغم من تعدد هذه دراسات فإنه يمكن تصنيف هذه الدراسات إلى ثلاثة نماذج
1- يتمثل النموذج الأول في تلك الدراسات التي تهدف إلى اكتساب المعرفة الاجتماعية والثقافة
2- النموذج الثاني يتمثل في الدراسات التي تحاول التعرف على القواعد العامة التي تقوم الناس بصياغتها بهدف فهم أنماط السلوك ويفسر كيفية نشأة النظام
3- اما النموذج الثالث من الدراسات فيتمثل في تلك الدراسات الهامة التي نحاول التعرف على الطرق التي يتبعها الناس للحكم على الأنشطة و إقرارهم بأنها مقبولة و مفهومة.
وقد انتقد أصحاب المنظور الاثنوميثودولوجي طرق وأدوات البحث المستخدمة في علم الاجتماع مثل المسح الاجتماعي و المقالات كما رفضوا استخدام صحيفة الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات الكمية التي تتطلبها الدراسات الاثنوميثودولوجية وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث و موضوع دراسته وتتضمن معرفة سابقة بالواقع

يفوضها الباحث على أداة بحثه بالإضافة إلى موقف التفاعل بين الباحث و المبحوث ويؤثر على حجم ونوعية البيانات التي يتم الحصول عليها ، ولكي يتعرف الباحث
الايثنوميثودولوجي على أفكار و قواعد سلوك المبحوث دون أي تدخل من طرف الباحث يرى أصحاب هذا المنظور أنه يمكن استخدام طريقة الملاحظة بالمشاركة.
بالإضافة إلى مناهج أخرى مثل المنهج الشبه تجريبي الذي يطلق عليه التجربة الاثنوميثودولوجية و الذي صاغها جارفنكل في كتاباته الأولى ، والمنهج الأخر الذي أطلق عليه المنهج التوثيقي
وكي يمكن فهم أي موقف في الحيات اليومية من وجهة نظر أعضاء المجتمع المشاركين في هذا الموقف يمكن تطبيق منهج شبه التجريبي على الجماعة التي يحاول الباحث دراستها، ويمكن للباحث تطبيق المنهج أو التجربة الاثنوميثودولوجية عن طريق محاولة كسر القواعد التي تحكم سلوك الجماعة بطريقة تختلف عن القواعد المتفق عليها مع تسجيل رد فعل الجماعة إتجاه الباحث، ومن ثم يمكن للباحث اكتشاف القواعد التي لا يعرفها الباحث كما يعرفها الأعضاء المشاركين في عملية التفاعل، وعلى سبيل المثال يحاول الباحث تعمد التصرف كما لو كان غريبا مع أعضاء أسرته، مع تسجيل رد فعل أعضاء الأسرة اتجاه الباحث، وبذلك يتمكن من التعرف على القواعد السلوكية المتفق عليها داخل الأسرة و التي تحكم سلوك و تصرفات أعضاء هذه الأسرة.
وقد استخدم هذا الاتجاه المنهج التوثيقي في محاولة تفسير كثير من المواقف، على سبيل المثال نجد جار فنكل بين جماعة المحلفين وقد استمع إلى هذه التسجيلات وما يذكره هؤلاء المحلفين مع بعضهم البعض كجماعة داخلية، ثم بعد ذلك قام بمقابلة هؤلاء المحلفين للتعرف على كيفية وصفهم لأسلوب المداولة أمامه كشخص خارجي عن الجماعة، وعن طريق المقارنة بين ما استمع له في تسجيلات وتصرفات المحلفين في جماعتهم الداخلية وبين تصرفاتهم داخل إطار مرجعي مختلف في حالة وجود شخص خارجي ، وبهذا تمكن جار فنكل من التعرف على كافة الظروف التي يتخذ فيها المحلفون قراراتهم و التي جعلت منهم جماعة لها سمات معينة .
ان نتائج مثل هذه الدراسات توضح بوجه عام إن أي فعل يبدو غامضا حتى يمكن إدراك معناه من خلال ما يحدث في الحياة الاجتماعية بإضافة إلى أنها توضح كيفية صياغة أعضاء المجتمع للحقيقة الاجتماعية
ويوصي هانز بيتردريتزل، وهو أحد العلماء الذين تبنوا المنظور الاثنوميثودولوجي بأن يقوم علماء الاجتماع بإستخدام المنهج التوثيقي نظرا لأن المنهج يمكنهم من فهم المعاني والدلالات التي تتضمنها عملية التفاعل(9)
و يصرح جارفنكل أن الطريقة التي ينظم بها الناس عالمهم الإجتماعي و يعقلونه هي تتم عبر نسق سيكولوجي والذي سماه بالمنهج الوثائقي. هذا المنهج يتكون بالدرجة الأولى من حقائق منتقاة من الوضعية الإجتماعية .

الانتقادات الموجهة للإثنوميثودولوجيا:
من الانتقادات التى وجهت إلى الإثنوميثودولوجيا بكثرة، ذلك الذى يتهمها بأنها لم تخبرنا بشئ فائق الأهمية. فهى بحكم تعريفها قد أخرجت من اهتمامها ومجالها القضايا السياسية والاجتماعية الكبرى التى تعتمل فى الحياة اليومية؛ حيث أن اهتمام أصحاب المنهجية

الشعبية كان منصباً على معرفة "كيف نبنى ونركب عالمنا"، وليس منصبا على معرفة "ما هى مكونات هذا العالم". من هنا قيل إن ما انتهى إليه الإثوميثودولوجيون إنما هى معلومات من مستوى متدن نسبياً، وأنها لا تعرفنا أكثر مما نعرفه عن العالم بالفعل. ومازال "جون غولدثورب" يعد من أكثر النقاد السوسيولوجيين التقليديين إدانة للإثنوميثودولوجيا، وذلك فى مقاله المعنون: **"هل هى ثورة فى علم الاجتماع"** المنشور فى مجلة علم الاجتماع؛ عام 1973،ولكن ربما كان أقسى الانتقادات المعروفة للإثنوميثودولوجيا ذلك النقد الذى ورد فى ثنايا عرض **"جيمس كولمان"** لكتاب جارفينكل فى المجلة الأمريكية لعلم الإجتماع، عام 1968، ونقد **"لويس كوزر"** في خطابه الرئاسي الشهير أمام الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فى عام 1975وكان عنوان كلمته **"طريقتان للبحث عن جوهر المادة"**، ونشر فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع

ومع أن جهود الاتجاه الإثنوميثودولوجى مازالت متصلة حتى اليوم؛ إلا أنها لم تعد بارزة ولا مثيرة للجدل بالشكل الذي كان عليه الأمر من قبل. ونلاحظ من ناحية أخرى أن هناك صورة معدلة من بعض آراء الإثنوميثودولوجيا أصبحت في حكم المسلمات فى حقل علم الاجتماع . فهناك - على سبيل المثال - قدر أكبر من الاعتراف من جانب علماء الاجتماع بالطبيعة الإشكالية لمفهوم المعنى، وبالطريقة التي يسهم بها حديثنا في خلق واقعنا الاجتماعي في نفس الوقت أصبحت الإثنوميثودولوجيا علما بديلا لعلمنا يتسم بالازدهار النسبي، الذي يتمثل فى مؤتمراته العلمية الخاصة، ومجلاته العلمية؛ ومراكز البحث الرفيعة المستوى المتخصصة فى بحوثه. (يمكن أن نجد عرضا ممتازا للبحوث المعاصرة في هذا الميدان في مقال **"هيريتيج "**عن الإثنوميثودولوجيا المنشورة في كتاب **أنتونى جيدنز** و **جوناثان تورنر** (محرران) وعنوانه: النظرية الاجتماعية المعاصرة؛ الصادر عام 1987 .

كما ظهر من بين أصحاب الاتجاه الإثنوميتودولوجى باحث مثل**" آرون سيسرول"** وضع فى المحل الأول من اهتمامه إقامة جسور بين الاجتماع التقليدي والإثنوميثودولوجيا (انظر كتابه: علم الاجتماع المعرفي، 1973)، أما أكثر المحاولات منهجية لزرع بعض آراء ومفاهيم الإثنوميثودولوجيا في علم الاجتماع التقليدي، فيمكن أن نجدها في أعمال **أنتونى جيدنز**، وخاصةً فى كتابه(قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع الصادر عام 1976) وكتابه تكوين المجتمع الصادر عام 1984، فقد كف فيه عن النظر إلى الواقع الاجتماعي والمجتمعات كتكوينات أو تصورات مبنية على الكلام؛ وإنما أدرك أن قواعد الكلام وكذلك الأفعال المسلم بها ذات أهمية أساسية للنظام الاجتماعي، واستخدم فكرة القاعدة على نحو مماثل لاستخدامها فى الإثنوميثودولوجيا بوصفها أسلوبا لفهم كل من الفعل الاجتماعي والبناء الاجتماعي والتقريب بينهما.

1- عبد الله محمد عبد الرحمان،النظرية في علم الاجتماع (النظرية السوسيولوجية المعاصرة)،ج2،دار المعرفة الجامعية، بيروت،ص ص 243-245
2- طلعت ابراهيم لطفي و كمال عبد الحميد الزيات،النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، ص 143
3- عبد الله محمد عبد الرحمان، مرجع سبق ذكره، 243-245
4- عبد الله محمد عبد الرحمان، مرجع سبق ذكره، ص 247
5- السيد عبد العاطي و اخرون،نظرية علم الاجتماع، الاتجاهات الحديثة والعاصرة ، دار

المعرفة الجامعية، بيروت، ص 362
6- علي عبد الرازق حلبي، إتجاهات أساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص ص 291- 292
7- محمد أحمد سومي واخرون،نظرية علم الاجتماع،الاتجاهات الحديثة والعاصرة،دار المعرفة الجامعية،بيروت، ص ص372- 373
8- محمد أحمد سومي، مرجع سبق ذكره، ص 374
9- طلعت ابراهيم و كمال عبد الحميد الزيات ، مرجع سبق ذكره، ص ص154-

- بيار بورديو:

ولد بيير بورديو Pierre Bourdieu في دينجون denguin،جنوب فرنسا في عام 1930،درس الفلسفة مع لويس ألثوسير Louis Althusser في المدرسة العليا العادية،أنجز بحثا اثنوغرافيا عن قبائل البربر الذي وضع الأساس لسمعته كعالم اجتماع، فكان أول كتاب له "سوسولوجيا الجزائر" Sociologie de L Algerie ، الذي ترك نجاحا فوريا في فرنسا ونشر في أمريكا في عام 1962، وفي 1960 عاد إلى جامعة باريس للتدريس حتى 1964، وفي 1964 تولى منصب مدير الدراسات ، ومن 1981 شغل أستاذ كرسي في الكلية الفرنسية Collège de France، وفي 1968 ترأس مركز السوسولوجيا الأوربية the Centre de Sociologie Européenne حتى وفاته في 2002.

بدأ بورديو متأثرا بمعظم رموز علم الاجتماع التقليدي،من ماكس فيبرMax Weber محتفظا بأهمية الهيمنة والأنظمة الرمزية في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى فكرة النظم الاجتماعية الذي في النهاية سيحوّل من قبل بورديو إلى نظرية الحقولِ،ومن كارل ماركس Karl Marx اكتسب فهم المجتمع كخلاصة العلاقات الاجتماعية: "الذي يدمج في علاقات العالمِ الاجتماعي - لَيست تفاعلات بين القوى Intersubjective المرتبطة بين الأفراد، لكن العلاقات االموضوعيةَ التي توجد بشكل مستقل عن الوعي والإرادة الفردية " ، والحاجة لتَطوير النظرية الاجتماعية بشكل جدلي من الممارسة الاجتماعية. وتأكيد الحتمية Deterministic أيضا منه، ومن خلال مارسيل موس Marcel Mauss وكلود ليفي

شتراوس Claude Lévi-Strauss،أكد ميل البنى الاجتماعية لإعادة إنتاج نفسها، وعمل بورديو على محاولة تجاوز سلسلة المقابلات التي ميّزت العلوم الاجتماعية (الذاتانية / الموضوعانية، المكبر / االمصغر، الحرية / الحتمية) [1].
لقد عمل بيار بورديو هذا من خلال التجديدات التصورية/المفاهيمية، مفاهيم الهابتوس(التطبع أو السجية Habitus، رأسالمال الثقافي والاجتماعي Social and Culture Capital ، وتصورات اخرى.
بدأ نجمه يبزغ بين المتخصصين انطلاقًا من الستينيات بعد إصداره كتاب الورثة (مع جون كلود باسرون)، وازدادت شهرته في آخر حياته بخروجه في مظاهرات ووقوفه مع فئات المحتجين والمضربين. اهتم بتناول أنماط السيطرة الاجتماعية بواسطة تحليل مادي للإنتاجات الثقافية يكفل إبراز آليات إعادة إنتاج البنيات الاجتماعية، وذلك بواسطة علم اجتماعي كلي يستنفر كل العتاد المنهجي المتراكم في كل مجالات المعرفة عبر اختلاف التخصصات،

1 - بيير بورديو ،**الرمز والسلطة**، ترجمة: عبدالسلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء(المغرب)، ، 1986، ص18

ولقد انتقد بورديو تغاضي الماركسية عن العوامل غير الاقتصادية، إذ أن الفاعلين المسيطرين ، في نظره، بإمكانهم فرض منتجاتهم الثقافية (مثلا ذوقهم الفني) أو الرمزية (مثلا طريقة جلوسهم أو ضحكهم وما إلى ذلك). فللعنف الرمزي (أي قدرة المسيطرين على الحجب عن تعسف هذه المنتجات الرمزية وبالتالي على إظهارها على أنها شرعية) دور أساسي في فكر بيير بورديو، معنى ذلك أن كل سكان سوريا مثلا بما فيهم الفلاحون سيعتبرون لهجة الشام مهذبة أنيقة واللهجات الريفية غليظة جدًّا رغم أن اللهجة الشامية ليست لها قيمة أعلى بحد ذاتها، وإنما هي لغة المسيطرين من المثقفين والساسة عبر العصور وأصبح كل الناس يسلّمون بأنها أفضل وبأن لغة البادية رديئة. فهذه العملية التي تؤدي بالمغلوب إلى أن يحتقر لغته ونفسه وأن يتوق إلى امتلاك لغة الغالبين (أو غيرها من منتجاتهم الثقافية والرمزية) هي مظهر من مظاهر العنف الرمزي.
أهم أعماله : أنتج بيير بورديو أكثر من 30 كتابًا ومئات من المقالات والدراسات التي ترجمت إلى أبرز الألسن في العالم والتي جعلته يتبوأ مكانة بارزة بين الأسماء البارزة في علم الاجتماع والفكر النقدي منذ نهاية الستينيات من القرن الماضي،أهمها:
-سوسيولوجيا الجزائر 1958
-الوَرَثَة. الطلبة والثقافة 1964
-إعادة الإنتاج- أصول نظرية في نظام التعليم- 1970
-التمييز- النقد الاجتماعي لِحُكم الذوق -1979

-الْحِس العملي 1980
- ما معنَى أن تتكلم- اقتصاد التبادلات اللغوية- 1982
- درس في الدرس 1982
- مسائل في علم الاجتماع1984
-الإنسان الأكاديمي 1984
- أشياء منَقُولة 1987
- الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدغر 1988
- إجابات: من أجل إنسيات انعكاسية 1992
- قواعد الفن (تكوُّن وبنية الْحقل الْأدبي) 1992
- بؤس العالَم 1993
-عِلَلٌ عَمَلية(في نظرية الفعل) 1994
- في التلفزة 1996
- تأملات باسكالية 1997
- السيطرة الذكورية 1998
-البنيات الاجتماعية للاقتصاد 2000
-علم العلم والانعكاسية 2001
-تدخلات، العلم الاجتماعي والعمل السياسي 2001، 2002
-توطئة لتحليل ذاتي 2004

مفهوم رأس المال الثقافيSymbolic System :

الثقافة عند بيار بورديو نسق رمزي أو كما أطلق عليها اسم القوة الرمزية وهو يقصد أن الأنساق الرمزية في أي مجتمع هي أدوات للسيطرة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الديمقراطي،وبهذا فإن الثقافة كأنسقة رمزية هي رأس مال، وهي موضوع صراع بين القوى الاجتماعية المتعددة،وتهدف كل قوة من هذه القوى الاجتماعية إلى السعي وراء السيطرة على حقل الثقافة أو إنتاج وتوزيع رأسمال ثقافي فيه وبالتالي إذا أردنا أن نصوغ معنا ولو كاريكاتوريا على رأسمال الثقافي فيمكننا القول بأنه القبول أو الاعتراف أو الاعتقاد بقوة أو بسلطة من يملك مزايا أكثر، أو شكلاً من الاعتراف بالشرعية، أو قيمة معطاة من الإنسان. ويرتبط هذا المفهوم بمبدأ السلطة ومبدأ التميُّز أو الاختلاف (في الخصائص) ومبدأ الأشكال المختلفة لرأس المال، ويدخل في مختلف الحقول وفي مختلف أشكال السلطة أو الهيمنة، أو في أشكال العلاقات، هذا هو "العنف الرمزي" الذي يحدثنا عنه عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو في كتابه عن "الهيمنة الذكورية"، ويقول عنه انه "عنف هادئ لا مرئي لا محسوس حتى بالنسبة إلى ضحاياه" [1]، ويتمثل في أن تشترك الضحية وجلادها في التصورات نفسها عن العالم والمقولات التصنيفية نفسها، وأن يعتبرا معا بنى الهيمنة من المسلمات والثوابت. فالعنف الرمزي هو الذي يفرض المسلمات التي إذا

انتبهنا إليها وفكرنا فيها بدت لنا غير مسلم بها، وهي مسلمات تجعلنا نعتبر الظواهر التاريخية الثقافية طبيعة سرمدية أو نظاما إلاهياً عابرا للأزمنة. أشد أنواع العنف ضد المرأة العنف الثقافي المقنّى العتيق الذي تعود ممارساته إلى مئات السنين إن لم نقل آلافها، وأشد أنواع العنف الثقافي هو ذلك العنف الرمزي الذي يبدو بديهيا، ويفرض نفسه على الضحية والجلاد والقاضي، ويقول عن نفسه انه ليس عنفا.

كأداة لترسيخ الطبقية:

إن النظام التربوي في المجتمعات ذات التفاوت الطبقي كما يرى بورديو يعتبر أحد الأليات الأساسية الفعالة في ترسيخ النمط الاجتماعي السائد في تلك المجتمعات،وهذا يبدو جليا من خلال بنية الفرصة النسبية المتاحة لأبناء الطبقات المختلفة لدخول النظام التعليمي في مراحله المختلفة،هذا من جهة ومن جهة أخرى ثمة مظهر آخر لهذا العنف الممارس القوى السائدة وهو في تنوع المدارس في المجتمع الواحد واختلاف مستوياتها باختلاف أصول الطبقية للطلاب الداخلين إليها،فأبناء الطبقات العليا هم الذين يحتلون المدارس ذات النوعية الرفيعة،وعلى ذلك فالتنوع في المدارس واختلاف مستوياتها إنما يعكس صور هذا التفاوت الطبقي ويجسد بشكل واضح أحد أهم مظاهر العنف الثقافي في المجتمعات الحديثة.

1- Pierre Bourdieu, **La Distinction. Critique sociale du jugement**, Les Éditions de Minuit, 1979, 670 p.

العنف الرمزي :

قبل دخول الفاعلين في الممارسة اليومية تكون المعايير قد ترسخت في أذهانهم عبر عملية التطبيع الاجتماعي وعبر سيرورات إيديولوجية يشير إليها بورديو باسم العنف الرمزي. ومن خلال إجرائه لبحث بمعية كلود باسرون على الطلبة في الستينيات ، لاحظ بورديو اللامساواة في ولوج التعليم الأولي بالمدرسة ؛ فأبناء العمال ممثلون بشكل كبير بنسبة ضئيلة (يمثل الطلبة 10÷ من 35 ÷ من السكان النشيطين) إن السلوك اتجاه المؤسسة المدرسية والعلاقة معها هما أيضا غير متماثلين بكثير تبعا للأصل؛ فالطلبة البورجوازيون يعتقدون أنهم موهوبون : إذ أنهم يعلنون موقفا صريحا وكراهية للتقنيات الأكثر مدرسية ، ولديهم " ضمان للوضعية " هو عبارة عن تطبع الطبقة. وبالفعل، فالثقافة المرفوع من شأنها وقيمتها من قبل المؤسسة مألوفة لديهم لأنها ثقافة وسطهم الاجتماعي. أما طلبة الطبقات المتوسطة والشعبية فلديهم سلوك معوز لأنهم يعتقدون أن بإمكان المدرسة أن تمنحهم النجاح المدرسي.أما المدرسون فهم متواطئون مع هذا النظام : فهم يضفون القيمة على " إيديولوجية الهبة " والعمل اللامع. الثقافة الجامعية إذن إرث بالنسبة للبعض، وتعلم بالنسبة للآخرين. وفي كتابه " نبالة الدولة " 1989 يتابع بورديو تحليلاته ؛ حيث إن قراءة تقرير لجنة التحكيم في مباراة التبريز تؤكد يؤكد " النبرة الطيبة " الجامعية : فالمرشحون مطالبون بالبرهنة على رزانتهم وعلى تهذيبهم وكياستهم وموهبتهم ونباهتهم ، إنهم مطالبون بتحاشي الطبقات الكادحة والادعاء والطمع والسوقية.

إن فرض معايير الامتياز هاته يتم عن طريق خدع ومن خلال ستر وإخفاء علاقات الطبقة بالهيمنة: إنها تشتغل بالعنف الرمزي ، إنها احتجاب يستهدف المتعلمين والمعلمين أيضا : " إن البروفيسور الذي يعزو لهذا التلميذ أو ذاك من تلامذته صفات ونعوت البورجوازية الصغيرة سيتم استنكار موقفه إن لم يتم اتهامه بإقامة أحكامه على اعتبارات طبقية ، حتى ولو كانت ضمنية وليست المدرسة هي المؤسسة الوحيدة التي تنتج العنف الرمزي ؛ وهكذا فالتمثلات التي تنتجها الصحافة المتلفزة تُفرض أحيانا على الأكثر خصاصة كمنطوقات معدة سلفا لما يعتقدون أنها تجربتهم" " بؤس العالم " ، والنظام السياسي محلل في إطار منظور مماثل. إن هناك " نزعة وهم ديمقراطي " توهم الجميع أن لهم نفس الحق في الرأي والتعبير. و الحقيقة هي أن السياسة مجال محتكر من قبل الطبقات المهيمنة، وللمهيمن عليهم نزوع للاعتقاد بأنهم غير أكفاء في هذا المجال ، لذلك فهم يقصون أنفسهم ذاتيا من الحياة السياسية بالتخلي عن سلطة القرار لديهم ، وبذلك يكون نظامنا نظام حظر مقنع.

عنف رمزي مهذب يكون بواسطة اللغة، والهيمنة، والإيديولوجيات السائدة، والأفكار المتداولة. ويكون أيضا عن طريق الإعلام، والعنف الذهني. لذا، يعرفه بيير بورديو بقوله:" العنف الرمزي هو عبارة عن عنف لطيف وعذب، وغير محسوس، وهو غير مرئي بالنسبة لضحاياه أنفسهم، وهو عنف يمارس عبر الطرائق والوسائل الرمزية الخالصة .أي: عبر التواصل، وتلقين المعرفة ، وعلى وجه الخصوص عبر عملية التعرف والاعتراف، أو والحميميات ." -على الحدود القصوى للمشاعر .

Pierre Bourdieu, La domination masculine, p:88

وعليه، يرتبط العنف الرمزي بالسلطة والهيمنة والحقل المجتمعي. بمعنى أن الدولة تمارس، عبر مجموعة من المؤسسات الرسمية والشرعية (الإعلام، والدين، والتربية، والفن، والصحافة...)، عنفا رمزيا ضد الأفراد والجماعات. ويعني هذا أن المجتمع الحاكم ضد الأفراد. وهذا العنف (violence symbolique) والمسيطر يمارس عنفا رمزيا أكثر خطورة من العنف المادي الجسدي. وفي هذا، يقول بيير بورديو:" يمكن أن يحقق العنف الرمزي نتائج أحسن قياسا إلى ما يحققه العنف السياسي والبوليسي،...إن أحد أكبر مظاهر النقص في الماركسية هو أنها لم تفرد مكانا لمثل هذه الأشكال اللطيفة من العنف التي هي فاعلة ومؤثرة حتى في المجال الاقتصادي...والعنف الرمزي هو ذلك الشكل من العنف الذي يمارس على فاعل اجتماعي ما بموافقته وتواطئه.ولهذه المسألة نتائج كبيرة على النقاش الفكري الدائر حول ما إذا كانت السلطة تنبثق من تحت، وحول ما إذا كان الشخص الخاضع للسيطرة يرغب في هذه الوضعية المفروضة عليه.وبصيغة أخرى، فإن الفاعلين الاجتماعيين يعرفون الإكراهات المسلطة عليهم، وهم- حتى في الحالات التي يكونون فيها خاضعين لحتميات- يساهمون في إنتاج المفعول الذي يمارس عليهم نوعا من التحديد والإكراه. ولعل مفعول الهيمنة إنما ينبثق من هذه التفاعلات والتوازنات بين المحددات الحتمية وكيفيات إدراكها.

هناك قدر من الإنكار في التعرف على العنف الذي يمارس على المرء مع عدم الاعتراف به كعنف...فانطلاقا من كوننا نولد في عالم اجتماعي، فإننا نتقبل عددا من البديهيات

والمسلمات التي تفرض نفسها علينا بتلقائية وسهولة، ولا تكاد تتطلب تلقينا.ولذلك، فإن تحليل كيفيات تقبلنا التلقائي للآراء والمعتقدات المتداولة في عالمنا الاجتماعي، هو الأساس الحقيقي لنظرية واقعية حول السيطرة وحول السياسة.وذلك بسبب التوافق المباشر بين البنيات الموضوعية والبنيات الذهنية.إن من بين كل أشكال الإقناع الصامت والسري هي تلك التي تتم بكل بساطة بفعل النظام العادي للأشياء."

Pierre Bourdieu et Loïc Wacquant, Réponses : pour une anthropologie réflexive, Paris, Seuil, 1992,pp:141-143

ويلاحظ أن العنف الرمزي أكثر خطورة من باقي أنواع العنف المادي والسلطوي؛ لأنه عنف عاد وبسيط ولاشعوري، ولايعترف به – مجتمعيا- على أنه عنف، بل تعود عليه الناس، وقبلوا به ماداموا خاضعين لمجموعة من الحتميات والجبريات المجتمعية التي تتحكم فيهم، ويعملون على تكريسها في واقع حياتهم. ومن ثم، لانرى لدى الناس أي رفض أو مقاومة لهذا العنف المعنوي والرمزي، بل يعتبرونه فعلا عاديا، على الرغم من خطورته وآثاره الخطيرة نفسيا ومجتمعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا. وأكثر من هذا لم يشر كارل ماركس إلى هذا النوع من العنف، بل اكتفى بالعنف الطبقي ، على الرغم من وجود هذا العنف على الصعيد الاقتصادي.

أضف إلى ذلك، فقد ركز بيير بورديو على التلفزيون باعتباره أداة إعلامية خطيرة تمارس العنف ضد المواطنين، إذ تقدم لهم ما تشتهيه السلطة المهيمنة التي تستغل وسائل الإعلام لتحقيق مصالحها وأهدافها وأرباحها. ومن ثم، يتلاعب التلفزيون بعقول الناس، وينشر بينهم إيديولوجية الدولة المهيمنة، وأفكار الطبقة الحاكمة. وهذا يهدد – فعلا- الثقافة والفن والديمقراطية الحقيقية [3]. وينطبق هذا الحكم نفسه على الصحافة التي صارت من الوسائل الخطيرة التي تشارك الفئات الحاكمة في ممارسة العنف الرمزي ضد الآخرين ،وفي الأخير، ينتج العنف الرمزي عن اختلاف أنماط الرأسمال لدى الفاعلين المجتمعيين باختلاف مواقعهم الاجتماعية ، ووجود طبقات اجتماعية مسيطرة ومسيطرة عليها، واختلاف مصالح الأفراد والجماعات من حقل إلى آخر، ووجود تفاوت اجتماعي وطبقي بين الجماعات.

– Pierre Bourdieu, Sur la télévision suivi de L'emprise du journalisme, Paris, Liber, coll. « Raisons d'agir », 1996, 95 p

وفي النهاية يمكننا القول إن العنف الرمزي "هو ذلك العنف الناعم واللامحسوس واللامرئي بالنسبة إلى ضحاياه أنفسهم، والذي يمارس في جوهره بالطرق الرمزية الصرفة للاتصال والمعرفة

(بيير بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة: سلمان قعراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص (16))

أي أنه نمط خاص من العنف ، أو أكثر تحديداً بالجهل والاعتراف، أو بالعاطفة كحدٍ أدنى العام يسمى أحياناً بالعنف المقنع أو المستور أو حتى العنف الخفي، وهو أسلوب موجه إلى عامة الناس خلاف العنف المادي أو المباشر الذي يكون هدفه محددا، فالعنف الرمزي يتخذ عدة أشكال وأنماط تشكل في مجملها إشارات أو رموز للمواجهة غير المباشرة، حيث يعمد فاعلوه على التخفي دون الظهور علانية.

عامر نورة: التصورات الاجتماعية للعنف الرمزي من خلال الكتابات الجدارية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم علم النفس وعلوم التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، (جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة، الجزائر، العام الدراسي 2005/ 2006، ص (5)

يعتقد بورديو أن العلاقات الاجتماعية، مهما كان حقلها أو مجالها، مرتبطة بآليات بنية التنافس والهيمنة والصراع. وقد أصبحت هذه الآليات راسخة ومتجذرة لدى الأفراد عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، فالأفراد ينتجونها بدورهم بطريقة غير واعية بوصفها أعرافا وقيما ومعايير. وتعد الأسرة والمدرسة فضاءات لترسيخ وإعادة إنتاج الطبقية واللامساواة الناتجة عن وجود طبقة مسيطِرة، وطبقة مسيطَر عليها، حيث تساهم مؤسسات الدولة والأسرة والنظام التربوي في ممارسة العنف الرمزي ضد الفاعلين المجتمعيين المرتبطين بها.

حسام الدين فياض: المدخل إلى علم الاجتماع – من مرحلة تأصيل المفاهيم إلى مرحلة التأسيس، مرجع سبق ذكره، ص (187)

ويلاحظ أن الكثير من آليات التنافس والسيطرة تنتقل من جيل إلى آخر عبر منافذ التربية والإعلام والثقافة بشكل رمزي مستتر.

اعتمد بورديو في صياغة نظريته عن العنف الرمزي على عدة مفاهيم متداخلة مع بعضها بعضا بما لديها من الأهمية لتضفي قوة على البحث المنهجي باعتبارها الأدوات التحليلية المرتبطة باستراتيجية كونية مؤسسة على مشروع فكري يهدف إلى بناء ودراسة آليات وميكانيزمات وقوانين اشتغال بنية العالم الاجتماعي، وهي كالآتي: النسق، السلطة الرمزية، رأسمال رمزي التي تتساند مع بعضها لكي تنتج مفهوم العنف الرمزي.

- **تعريف الأبيتوسHabitus :(السمت)**

يرى بيار بورديو أن الأبيتوس هي نسق من الترتيبات الدائمة والمتغيرة المواضع،والبنى المبنية المهيأة للعمل كبنى تبني بشكل بسيط،و يمكن تعريف الأبيتوس كنسق من التنظيمات أو الترتيبات المرتبطة بمسار اجتماعي معين(فالعامل ابن العامل،اَلأصل أن يكون له الأبيتوس عامل تقليدي في حين أن العامل بن الفلاح يمكن أن يكون له أبيتوس البرجوازي الصغير،ومن هذا المنطلق فإن لكل طبقة اجتماعية نوعان من الأبيتوس:

1- أبيتوس إعادة الإنتاج: وهنا يعني محولة توافق الفرد مع الظروف المعاشة من طرف العائلة الأصلية فابن العامل لا يطمح إلا أن يكون عاملاً.
2- أبيتوس"التسلق" الاجتماعي: وهو الذي يطمح إلى الصعود فوق الطبقة الأصلية كأن تجد ابن العامل يطمح أن يصبح في المستقبل طياراً ًأو جراحاً،وخلال هذا التحليل للأبيتوسات فإن التنشئة الاجتماعية حسب بيار بورديو عبارة عن عملية بيوغرافية لدمج التنظيمات الاجتماعية المكتسبة لا في العائلة فقط والطبقة الأصلية،لكن في مختلف مراحل حياة الفرد التي يمر بها أثناء وجوده داخل مجتمعه،إذن فالتنشئة الاجتماعية من وجهة تضمن اندماج "أبيتوسات" الطبقة وتنتج الانتماء الطبقي لأفراد كل هذا نظرية بيار بورديو بإعادة إنتاج الطبقة باعتبارها مجموعة تتقاسم نفس الأبيتوسات [1].

يتخذ مصطلح الهابتوس أو الآبيتوس (Habitus) دلالات فلسفية وسوسيولوجية مختلفة، ويعني طريقة في الوجود، أو المظهر العام، أو حالة ذهنية أو عقلية، ويعني هذا أن الهابيتوس ثقافة، وحضارة، ونمط من أنماط الوجود والعيش والحضور في العالم.

وقد استعمل مصطلح الهابيتوس أوالآبيتوس (Habitus)، قديما عند الفلاسفة اليونانيين بمفهوم (Hexis)، وخاصة أفلاطون وسقراط، وأرسطو، ومن بعدهم هيغل، وهوسرل، وماكس فيبر، وإميل دوركايم.... بيد أن مصطلح (Hexis)، قد استبدل، إبان العصور الوسطى، بمصطلح الهابيتوس (Habitus)، للدلالة على الحالة أو الوضعية أو طريقة العيش.

1- Pierre Bourdieu, **Sur la télévision suivi de L'emprise du journalisme,** Paris, Liber, coll. « Raisons d'agir », 1996, p 95

هذا وقد أخذ بيير بورديو مصطلح الهابيتوس من المفكر السكولائي طوماس أكين (Thomas D'Aquin)، الذي استعمل مصطلح هابيتوس لترجمة المفهوم الأرسطي (الهيكسيس)، وقد استلهمه أيضا من إرفين بانوفسكي (Erwin Panofsky)، الذي تحدث عن جماليات الإتجاه المدرسي في العصور الوسطى[1] ومن ثم فالهابيتوس هو التطبيع الاجتماعي في مجتمع تقليدي، أو هو بمثابة نظام من الإيتوس القيمي المتعالي، يستطيع الفرد عبره أن يتحرك في العالم المجتمعي، بغية فهمه بطريقته الخاصة، أو بطريقة مشتركة مع الطبقات الاجتماعية الأخرى التي يعيش معها.

وقد ركز بورديو على بنية الهابيتوس الداخلية، ومكوناته، ووظيفته، فمن حيث البنية، يتكون الهابيتوس من مجموعة من الميول، والتصورات، والمعتقدات، والإدراكات، ورؤى العالم، ومبادئ التصنيف، ومن ثم، يساعد الهابيتوس الذي يكتسبه الفرد في الأسرة والمدرسة على تمثل المجتمع واستيعابه بشكل جيد.

هذا، وتقوم التجمعات الأولية(الطفولة والمراهقة)، والتجمعات الثانوية (سن الرشد)، بدور هام في بناء الهابيتوس، ويستطيع الأفراد عبر هذا الرأسمال الاجتماعي

المحصل عليه، بفعل التنشئة الاجتماعية، أن يخلقوا هابيتوس الطبقة (Un Habitus De Classe)، بسبب تشاركهم في مجموعة من الأفعال والتصرفات والسلوكيات المشتركة، وبذلك يكون الهابيتوس هو مصدر أفعال الأفراد المجتمعيين، وهو الذي يتحكم في توجهاتهم القيمية والأخلاقية والمعيارية، أي: إنه بمثابة الأنا الأعلى السيكولوجي لتجارتهم الحاضرة في العالم[2] .

ومن هنا، فالهابيتوس هو بمثابة قالب معياري وأخلاقي للشخصية الفردية، بل بمثابة ضرورة أو حتمية تتحكم في أفعال الإنسان، فيما يخص هوايته، وثقافته، وتربيته، وعمله، وتغديته، واستهلاكه...

ويبدو أن مصطلح الهابيتوس الهابيتوس مصطلح غامض ومعقد، إذ يقصد به بيير بورديو "بعض الخصال المترسخة في داخل عقول البشر وأجسادهم" ومن هنا، فالهبيتوس بمثابة مجموعة من الاستعدادات أو الملكات الدائمة التي يكون الفرد قد اكسبها أو تطبع عليها عبر التنشئة الاجتماعية، وبالتالي، فالاستعدادات هي مجموعة من الميول

والاتجاهات والمواقف النتعلقة بالتفكير والادراك والاحساس، فيستنبطها الأفراد حسب ظروفهم الموضوعية لوجودهم، وتوظف هذه الاستعدادات بطريقة لا شعورية، وتتمثل هذه الاستعدادات المستضمرة في القيم والتصرفات والسلوكيات والمكتسبات المعرفية والذهنية، ويعني هذا أن الهابيتوس عبارة عن مجموعة من البنى المعرفية والإدراكية المستدمجة، ويتم إنتاجها في بيئة اجتماعية محددة، ويعاد إنتاج هذه البيئة من خلال قدرة الهابيتوس على التوليد.

1- حسني إبراهيم عبد العظيم، **الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي(قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو)** ،المجلة العربية لعلم الاجتماع،العدد 15، 2011 ص21.

2- بيير بورديو ،**الرمز والسلطة**، ترجمة: عبدالسلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء(المغرب)، ، 1986، ص18

وعليه لا يقتصر الهابيتوس على توجيهات الأفراد وتصوراتهم الشخصية فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى الاستعدادات الجمعية، مثل: أنماط التفكير والإدراك والتقدير والممارسة، ومن ثم، يؤثر الهابيتوس في الأفعال اليومية، كالتذوق، والملابس، والأثاث، والفن، وعادات الاستهلاك، وأوقات الفراغ... ومن هنا، فالهابيتوس نتاج ظروفه الموضوعية ذاتها.

فالهايبتوس بمثابة مجموعة متنوعة من التوجهات المستمرة والمهارات وأشكال من المعرفة الفنية التي يلتقطها الناس ببساطة من معاشرة أناس من ثقافات فرعية معينة، ويمكن أن تتراوح هذه من أشكال السلوك الجسدي، والحديث، والإيماء، والملبس والأخلاق الاجتماعية، من خلال مجالات المهارات المحركة والعملية إلى أنواع معينة من المعرفة والذاكرة المتراكمة.[1]

يكتسب الفرد أو الفاعل الذاتي مجموعة من الموارد التي تجعله قادرا على إدماجها حينما يتفاعل مع بينية المجتمع بواسطة عملية الاستيعاب الخارجي، أي: إن ثمة تجانسا وتطابقا وتماثلا بين البينة الذاتية والبنية المجتمعية اللتين يتحكم فيهما الهابيتوس، وفي هذا يقول **جون سكوت**: أكد بورديو التطابق والتجانس القريب بين التنظيم

الاجتماعي وديناميكيات العالم الخارجي والترتيبات المجسمة الداخلية للأفراد، ويرى أن هذا يأتي عن طريق ما يسميه بالاستيعاب الخارجي، ولقد أخذت أو استوعبت العوامل البشرية بالتدريج على مدار السنين أنواع الأمور، التي تحتاج إلى معرفتها عن بيئتها الخارجية الاجتماعية والمادية حتى يمكنها المشاركة بنجاح في مجالات معينة من ممارستها الاجتماعية،فتترسخ هذه المعرفة في معظمها طبيعة ثانية، إنها توفر مجموعة من الموارد الكامنة في الشكل الذي يسميه بورديو بالمخططات التوليدية التي يمكن الاعتماد عليها كلما اقتضت الظروف.

ومن هنا ليس الهابيتوس مجرد تمثل أو إدماج عاد وبسيط، يبني على ممارسات تقليدية أساسها التكرارا والتنميط والتطبيق الآلي بل هو إدماج إبداعي يتجاوز المماثلة إلى الاستيعاب ومواجهة وضعيات جديدة، كما ان الهابيتوس هو بمثابة بنيات خاضعة لعامل التكيف والتأقلم مع العالم المجتمعي الموضوعي، وفي الوقت نفسه هو بمثابة أفعال محركة لبنية المجتمع، أو بمثابة ممارسات جديدة تهدف إلى حل مشكلات الواقع الموضوعي، وتجاوز حتمياته الجبرية، والهابيتوس يتضمن التطبع بالمجتمع من جهة والتحكم فيه بالفعل الفردي الإبداعي من جهة أخرى.

ويعني هذا أن الفرد يستطيع أن يولد مجموعة من الخطط والإستراتيجيات، حينما يواجه وضعيات مجتمعية جديدة، مثل الذي يستعمل لغته الأم فإنه يستطيع من خلال قواعده محددة أن يولد جملا لا متناهية العدد، ويعني هذا أن الهابيتوس هو مولد إبداعي وتطبيقي لفرد يستعمل كل استراتيجياته وموارده وخططه، حينما يجابه وضعيات مجتمعية جديدة إما بطريقة واعية وإما بطريقة غير واعية يجتهد ويتصرف وفق القواعد والمعايير التي استضمرها سابقا، عن طريق التنشئة الاجتماعية المستمرة أو التي انتقلت إليه من الآخرين.

1- Pierre Bourdieu et Jean Claude Passeron, la reproduction, éléments pour une théorie du système d’enseignement, édition de minuit, 1980, p 144

وإذا كان إميل دوركايم (E.Durkheim) يدرس الظواهر المجتمعية على أنها أشياء وموضوعات، من خلال التركيز فإن ماكس فيبر يدرس الذوات الفاعلة التي تأثر في المجتمع من خلال المعاني والمقاصد التي ترتبط بها أفعالهم السلوكية، هدا أن ثمة ثنائية الذاتية الموضوعية، بينما يرفض بيير بورديو هذه الثنائية ويعتبرها حالة مصطنعة

ومشوهة، فهو يحاول الجمع بينهما بتوليد مجموعة من المفاهيم السوسيولوجية، منها: مصطلح الهابيتوس.

فالهابيتوس يتجاوز التعارض الموجود بين الوعي واللاوعي، فيوحد بين الفعل المجتمعي والبنية المجتمعية ويعبر عن انفتاح الذات على المجتمع الخارجي، وفي لوقت نفسه يحيل خضوع الذات الجبرية المجتمعية الخارجية.

فيما مضى لم يكن الهابيتوس سوى تأقلم وتكيف عاديين وبسيطين مع الأوضاع، بتوظيف المكتسبات السابقة بطريقة آلية بل يمكن اليوم أن يتحقق الهابيتوس بطريقة إبداعية خلاقة، بإيجاد الحلول الناجعة لمختلف الوضعيات المعقدة والصعبة والمركبة، ويعني هذا أن الهابيتوس يسمح للفرد بتوليد مجموعة من الممارسات الجديدة التي تتلاءم مع العالم المجتمعي الذي يعيش فيه، ومن هنا فالهابيتوس بمثابة محرك قوي وديناميي يتخذ طابعا تطبيقيا.

فالهابيتوس نتاج البنيات الجبرية والأفعال الحرة على حد سواء، ومن هنا ليس الهابيتوس تطبعا اجتماعيا عاديا بل هو محرك لممارسات مجتمعية جديدة لا متناهية العدد، وتشكل هذه الأحكام نسقا أو نظاما، وبالتالي فالهابيتوس مصدر وحدة الأفكار والفعال لدى الفرد ولا يقتصر الهابيتوس على ما هو فردي، بل يتعدى ذلك إلى الجماعات المجتمعية التي تعيش التطبعات نفسها، ويعني هذا وجود أنماط مختلفة من التفكير والإحساس والعمل ضمن طبقة اجتماعية واحدة ومتجانسة، ومن خصائص الهابيتوس أيضا ديمومة أحكامه وقابلية نقلها من فرد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، ومن جماعة إلى أخرى[1]، وللتمثيل بحق العمل يرتبط الهابيتوس العمال بالمفيد والضروري ومن ثم فلباسهم وظيفي ويهتمون بالفن الملتزم الواقع، ويكون أكلهم دسما ومشبعا أي: لهم نمط حياة مشتركة تشكل ما يسمى بالهابيتوس العمال، ويتميز الهابيتوس عن باقي الهابيتوسات الأخرى مضمونا وشكلا، في حين يقوم هابيتوس البورجوازي على التجريد، وحب الفن، والبحث عن الجديد من الموضة.

يعني الهابيتوس مبدأ الفعل لدى الأفراد داخل العالم المجتمعي، أو هو بمثابة الأنا الذي يوجه سلوك الأفراد داخل المحيط المجتمعي بطريقة ل شعورية، أو هو نسق من الاستعدادات والملكات والقيم والأفكار والمواقف والاتجاهات التي تطبع عليها الفرد في المجتمع، بغية التمثل بها أثناء مواجهة المواقف والوضعيات المختلفة فهو الذي يوجه سلوك الفرد أثناء مواجهة وضعية قديمة او جديدة، لذا يعتبر الهابيتوس منتج السلوكيات والتصرفات والأفكار والعواطف والقيم التي يمتلكها الفرد أثناء التفاعل مع موقف مجتمعي معين بمثابة موجه لما هو فكري وذهني، وما هو وجداني وقيمي، وما هو فعلي وسلوكي، أما موقعه فهو الوسط بين العلاقات المجتمعية الموضوعية والسلوكيات الفردية، أو هو حلقة وصل بين بنية المجتمع والفعل الفردي، وعلى العموم يتكون الهابيتوس من شقوق ثنائية: فردي ومجتمعي، ذاتي وموضوعي، وفاعل ومنفعل[2].

بيار أنصار، **العلوم الاجتماعية المعاصرة**، ترجمة: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، 1- 1992، ص 27

2- عبد الجليل بن محمد الأزدي، **بيير بورديو الفتى المتعدد و المضياف**، المطبعة الوطنية، مراكش، 2003، ص 55.

ويرتبط الهابيتوس برأسمال معين كالرأسمال المادي، أو الرأسمال الثقافي، أو الرأسمال الاجتماعي، أو الرأسمال الرمزي، وليس الصراع الطبقي هو الوحيد الذي يتحكم في الطبقات الاجتماعية، بل يكون العنف الرمزي أيضا عاملا من عوامل الصراع وأشكاله.

ومن ثم فلكل طبقة اجتماعية هابيتوس خاص، ورأسمال معين، مثل: طبقة العمال، وطبقة المثقفين، وطبقة الفقراء، وطبقة الأغنياء ... ويعني هذا أن الهابتوس يرتبط من جهة بالفعل وبنية المجتمع، ومن جهة أخرى يقترن بالرأسمال والتميز الجنسي أو الثقافي أو الاقتصادي أو المجتمعي ...

وفي الحقيقة واعتمادا على الهابيتوس يمكن تعيين مظاهر التميز الاجتماعي بلا حدود حتى في السلوك اليومي للفرد في: الشارع، والمؤسسة، والبيت، والمشي، والجلوس، والنوم، والعمل، والإتيكيت، والمسكن، ونمط العيش، والسفر، وقضاء أوقات الفراغ، والتسوق، والدراسة، والهوايات ... إلخ.